International Journal for Scientific Research (IJSR)
المجلة الدولية للبحوث العلمية
IJSR
Vol. (5), No. (5) May 2026 الإصدار (5)، العدد (5)

الدور الدلالي للسياق اللغوي وأثره في فهم القرآن الكريم

خليل محمد خليل
أستاذ مساعد، كلية العلوم الإسلامية، جامعة كهرمان مرعش الاستقلال، تركيا
ORCID: 0000-0003-1831-3964
altawhidd@gmail.com

الملخص

يتناول هذا البحث موضوع الدور اللغوي الدلالي للسياق وأثره في فهم ألفاظ القرآن الكريم، منطلقًا من إشكالية مركزية مَفادها: إلى أي مدى يُسهم السياق في تحديد المعنى الصحيح للنص القرآني وتوجيه دلالاته المتعددة؟ تنبع أهمية الدراسة من كون السياق يمثّل ركيزة أساسية في علم الدلالة، إذ لا يمكن فهم الألفاظ القرآنية فهمًا دقيقًا بمعزل عن سياقاتها اللغوية والحالية والتاريخية. اعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي، مستندًا إلى التراث اللغوي العربي عند النحاة والبلاغيين، مع الاستفادة من آراء المفسرين واللغويين، مثل سيبويه والخليل بن أحمد، إضافة إلى تحليل شواهد قرآنية توضح أثر السياق في توجيه المعنى. كما تناول البحث مفهوم السياق بنوعيه: سياق النص وسياق الموقف، مُبرزًا دور القرائن اللغوية وغير اللغوية في تحديد الدلالة. وتوصلت الدراسة إلى جملة من النتائج، أبرزها أن الكلمة القرآنية لا تستقل بمعناها خارج سياقها، وأن تعدد الدلالات في الألفاظ القرآنية يرتبط بالسياق وباجتهادات المفسرين واختلاف القراءات. كما أكدت أن السياق يسهم في انتقال الألفاظ من معناها اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي أو العقدي، وأنه عامل حاسم في فهم الإعجاز البياني للقرآن الكريم. كذلك أبرزت الدراسة أن علماء العربية القدماء أدركوا مفهوم السياق وإن لم يصوغوه بمصطلحه الحديث. وتخلص الدراسة إلى أن فهم القرآن الكريم فهمًا صحيحًا يقتضي استحضار السياق بجميع أبعاده؛ اللغوية والتاريخية والاجتماعية، وأن إهماله يؤدي إلى خلل في تفسير النص واستنباط دلالاته، مما يجعل السياق أداة مركزية لا غنى عنها في الدراسات القرآنية واللغوية.

الكلمات المفتاحية: علم الدلالة، السياق، ألفاظ القرآن الكريم، القراءات القرآنية، التفسير، الإعجاز البياني.

The Semantic Role of Linguistic Context and Its Impact on Understanding the Holy Qur'an

Halil Muhammed Halil
Assistant Professor, Faculty of Islamic Sciences, Kahramanmaraş İstiklal University, Türkiye
ORCID: 0000-0003-1831-3964
altawhidd@gmail.com

Abstract

This study examines the semantic-linguistic role of context and its impact on understanding Qur'anic vocabulary, starting from a central research question: to what extent does context contribute to determining the correct meaning of the Qur'anic text and guiding its multiple interpretations? The significance of this study lies in the fact that context constitutes a fundamental pillar of semantics, as Qur'anic expressions cannot be accurately understood in isolation from their linguistic, situational, and historical contexts.

The research adopts a descriptive-analytical approach, drawing on the Arabic linguistic heritage of grammarians and rhetoricians, while also benefiting from the views of exegetes and linguists such as Sibawayh and Al-Khalil ibn Ahmad. In addition, it analyzes Qur'anic examples that

demonstrate the role of context in shaping meaning. The study also addresses the concept of context in its two dimensions: textual context and situational context, highlighting the role of linguistic and extra-linguistic clues in determining meaning.

The findings reveal that the Qur'anic word does not possess an independent meaning outside its context, and that the multiplicity of meanings in Qur'anic vocabulary is closely related to context, exegetical interpretations, and variations in Qur'anic readings. The study further confirms that context contributes to the انتقال of words from their lexical meanings to technical or theological meanings, and that it plays a decisive role in understanding the rhetorical inimitability of the Qur'an. It also demonstrates that early Arab scholars were aware of the concept of context, even if they did not formulate it in its modern terminological sense.

The study concludes that a proper understanding of the Holy Qur'an requires considering context in all its linguistic, historical, and social dimensions, and that neglecting it leads to flawed interpretation and misunderstanding of meanings, making context an indispensable tool in Qur'anic and linguistic studies.

Keywords: Semantics, Context, Qur'anic Vocabulary, Qur'anic Readings (Qirāʾāt), Exegesis (Tafsīr), Rhetorical Inimitability.

المدخل

يحتل مفهوم السياق مكانةً مركزيةً في ميدان الدراسات اللغوية الحديثة، ولا سيما ضمن حقل علم الدلالة، إذ يُعد الآليةَ الأساسية التي تتحدَّد من خلالها معاني الألفاظ وتُفهَم وظائفها التداولية داخل الخطاب. وتتضاعف أهمية هذه الآلية وتصبح ضرورة منهجية حين يتعلق الأمر بمقاربة النص القرآني؛ لما يتّسم به من ثراء دلالي وتعددية في المعاني تجعل من المستحيل استيعاب مقاصده الدقيقة بمعزل عن شبكة السياقات اللغوية والحالية والتاريخية التي تكتنف ألفاظه، والجدير بالذكر أن الوعي بفاعلية هذا البعد السياقي ليس حكرًا على الدرس اللساني المعاصر؛ فقد تجلى بوضوح في المنجز التراثي لعلماء العربية الأوائل، أمثال سيبويه والخليل بن أحمد، الذين أدركوا بعمق ارتباط اللفظ بمعناه من خلال المقام والقرائن المصاحبة، مؤسسين بذلك لَبِنَةَ نظريةٍ قوية يمكن استثمارُها في المقاربات الدلالية المعاصرة.

إشكالية البحث وفرضياته

ومن هذا المنطلق، تتبلور الإشكالية المركزية لهذا البحث في التساؤل حول طبيعة الدور الدلالي الذي يؤديه السياق في توجيه دلالات الألفاظ القرآنية، ومدى قدرته على تحديد المعنى الصحيح للنص القرآني، لا سيما في ظل التحديات التي يفرضها تعدد الدلالات للفظ الواحد، واختلاف القراءات القرآنية، وتباين اجتهادات المفسرين، ولمقاربة هذه الإشكالية، تنهض الدراسة على فرضيات أساسية مفادها: أن السياق يُعد العامل الفيصل والحاسم في ترجيح المعاني القرآنية، وأن اللفظة المفردة في القرآن لا تستقل بدلالتها التامة خارج محيطها السياقي، فضلًا عن أن ظاهرة تعدد المعاني ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالقرائن السياقية المصاحبة للنص، مع التأكيد على أن التراث اللغوي العربي كان سبّاقًا في تأسيس فهم سياقي للدلالة وإن لم يَصُغْهُ بالمصطلح الحديث.

تساؤلات الدراسة

وتسعى الدراسة، في ضوء ما سبق، إلى الإجابة عن جملة من التساؤلات المنهجية، أبرزها: ما الماهية الدقيقة للسياق وأنواعه في الدرس اللغوي والدلالي؟ وكيف يتدخل كل نوع في توجيه المعنى؟ وما أثره التطبيقي في تفسير ألفاظ القرآن الكريم وتوجيه دلالاتها؟ وما هي العلاقة بين السياق وظاهرة تعدد المعاني واختلاف القراءات القرآنية؟ وإلى أي حدّ استطاع علماء العربية القدماء إدراك هذا المفهوم وتوظيفه في التحليل اللغوي؟

الدراسات السابقة ومبررات البحث

حظي موضوع السياق وأثره في فهم النص القرآني باهتمام عدد من الدراسات المعاصرة التي تناولته من زوايا مختلفة؛ إذ جاءت دراسة عبد الله واليني الموسومة بالدلالة اللغوية والسياق وأثرهما في فهم ألفاظ ومصطلحات القرآن عند المفسرين (ابن عباس والشعراوي نموذجًا)[1] لتبحث في أثر الدلالة اللغوية والسياق من خلال مقارنة تطبيقية بين تفسيرين ينتميان إلى عصرين مختلفين، وقد خلصت إلى أن التباين في فهم الألفاظ القرآنية بين المفسرين يعود إلى اختلاف توظيف السياق والدلالة، وأنهما عنصران حاسمان في تفسير النص القرآني. كما تناولت دراسة وسو زبير البرزيوي بعنوان السياق ودوره في تفسير القرآن الكريم الجانب التأصيلي للسياق،[2] فعرّفت به وبيّنت أنواعه وحجيته وضوابطه، مؤكدة أهميته كأداة منهجية في توجيه المعنى التفسيري. وفي سياق قريب، جاءت دراسة أحمد أبو المجد تهامي معلاوي بعنوان علاقة التأويل بالسياق ودوره في بناء المعنى لتربط بين السياق والتأويل،[3] وتبرز أن اختلاف الاتجاهات التفسيرية يرتبط إلى حد كبير بتفاوت فهم السياق، وأنه عنصر حاكم في بناء الدلالة. أما دراسة بوصوار كلثوم وزويدة فاطمة الزهراء الموسومة بدلالة السياق اللغوي في فهم القصص القرآني (سورة يوسف نموذجًا)[4] فقد اتجهت نحو التطبيق الجزئي، مركزة على سورة يوسف، ومبينة أثر السياق في تحليل البنية السردية والدلالية للنص القرآني. كما عرضت دراسة دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير معالجة نظرية تطبيقية، مع التركيز على تفسير الطبري، وربطت بين السياق ومنهج تفسير القرآن بالقرآن، مع حصر عدد من الدراسات في هذا المجال، وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسات وتنوع مقارباتها، فإنها اتسمت إما بالتركيز على جانب تطبيقي جزئي أو بمعالجة نظرية منفصلة، دون الجمع بين التأصيل التراثي والتحليل الدلالي في إطار شامل؛ ومن هنا تتميز هذه الدراسة بمحاولة تقديم رؤية تكاملية تجمع بين التراث اللغوي العربي والدراسة الدلالية الحديثة، مع التركيز على الدور الدلالي للسياق في توجيه معاني الألفاظ القرآنية، وربط ذلك بتعدد الدلالات واختلاف القراءات، بما يسهم في تقديم معالجة أكثر شمولًا ودقة لهذا الموضوع.

هيكلية البحث

المقدمة: (وتشمل التمهيد، المشكلة، الفرضيات، الدراسات السابقة وغيرها).

فوائد السياق: وتشمل أهمية السياق: ويركز هذا الجزء على دور السياق في تحديد المعنى المراد إيصاله من المتكلم للمخاطب، وأن الكلمة لا معنى لها خارج سياقها.

وأثر السياق ودلالته في المعنى: ويتناول ارتباط الكلمة بالتاريخ والحضارة، وكيف تنتقل الألفاظ القرآنية من المواضعة اللغوية البحتة إلى المعاني الاصطلاحية والشرعية.

السياق عند النحاة: ويستعرض هذا القسم جهود علماء اللغة القدماء، أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه، وكيف فطنوا لمسألة "سياق الموقف" (الذي أطلقوا عليه "الحال") واعتمدوا على الشواهد النحوية والقرائن لتوجيه المعنى.

عمق السياق وأثره في ثبوت الدلالة: ويناقش هذا المحور كيف تتغير دلالة الألفاظ وتتطور عبر الزمن وتأثرها بالبيئة والأحداث المحيطة، مع الإشارة إلى أن الألسنة تختلف من عصر لعصر.

الجانب الوصفي وأثره في الدلالة: ويوضح هذا الجزء العلاقة السياقية في الكلمة في وقتها الراهن بغض النظر عن تطورها التاريخي، مستشهداً بآراء بعض العلماء كابن حابط وابن حزم.

ألفاظ القران الكريم وأثرها في السياق: وهو الجانب التطبيقي في البحث، حيث يبين كيف ترتفع الألفاظ القرآنية إلى مستوى الإعجاز، ويستشهد الباحث بآيات قرآنية توضح أثر السياق (مثل اختلاف دلالة التقديم والتأخير بين سورة "يس" وسورة

[1] عبد الله عويني، الدلالة اللغوية والسياق وأثرهما في فهم ألفاظ ومصطلحات القرآن عند المفسرين: ابن عباس والشعراوي نموذجًا، مجلة (لغة – كلام)، 2/11 (2025).

[2] وسو زبير وسو البرزيوي، السياق ودوره في تفسير القرآن الكريم، مجلة الجامعة العراقية، العدد 35، (2016).

[3] أحمد أبو المجد تهامي معلاوي، علاقة التأويل بالسياق ودوره في بناء المعنى (التأويل المذهبي للقرآن الكريم بين أهل السنة والخوارج نموذجًا)، مجلة كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي، 59/32 (2023).

[4] بوموز كلثوم، وزويدة فاطمة الزهراء، دلالة السياق اللغوي في فهم القصص القرآني: سورة يوسف أنموذجًا (تيارت: جامعة ابن خلدون، مذكرة ماستر، 2019).

"القصص" في قوله تعالى "وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى").

الخاتمة: وتتضمن خلاصة البحث وأهم النتائج التي تم التوصل إليها.

1. فوائد السياق:

1.1. أهمية السياق:

إذا ما تتبعنا مفهوم "السياق" لغويًا، نجد أنه ينحدر من الجذر العَرَبي (س وق)، المأخوذ من المصدر (ساق، يسوق، سَوقًا، وسياقًا)، وهو دلالة تشير بوضوح إلى معنى الإيراد والتتابع.[1] أما اصطلاحًا، فإن السياق ليس مجرد ترتيب عشوائي للكلمات، بل هو مجموعة من الأمور المترابطة والأحداث المتشابكة والآراء المتوافقة التي تندمج معًا في تراكيب لفظية ومعنوية يصعب الفصل بينها، لتُنتج في النهاية دلالة واضحة ومعنى دقيقًا ينجلي للسامع.

وقد احتل هذا المفهوم مكانة الصدارة في الدراسات اللغوية الحديثة؛ إذ يُعد من أدق المصطلحات وأهم النظريات تماسكًا وضبطًا في حقل علم الدلالة. وتبرز الأهمية القصوى للسياق في كونه الميزان الحقيقي للكلام، والأداة الحاسمة التي تُحدد المعنى المراد إيصاله من المتكلم إلى المخاطب. فمن خلال وضوح السياق، وتناسق عباراته، والانتقاء الدقيق لألفاظه، يتبلور الفهم وتتحقق الغاية التداولية والنفعية من الحوار.

إن القاعدة الذهبية في هذا الباب هي أن الكلمة لا تكتسب قيمتها الحقيقية ولا يتحدد معناها الدقيق إلا بانخراطها في جملة سياقها؛ إذ لا معنى مستقلًا لها خارج هذا الإطار. وقد تفطن علماء اللغة العرب قديمًا لهذه الحقيقة الجوهرية عندما صاغوا قاعدتهم البليغة والموجزة: "لكل مقامٍ مقال"،[2] مشيرين بذلك إلى ضرورة تلاؤم التعبير المنطوق مع الظروف المحيطة به.

ولفهم هذه الملابسات بشكل أعمق، لذلك يُقسم هذا المفهوم انطلاقًا من فكرة التوالي والإيراد إلى شقين أساسيين يتكاملان لتوجيه المعنى:[3]

- أولاً: سياق النص (السياق اللغوي): ويُقصد به توالي العناصر الأساسية في الكلام وتداخلها لتكوين البنية اللفظية والتركيبية، مما يحقق سبك النص وتماسك معالمه. [4]
- ثانياً: سياق الموقف [5](السياق الحالي أو الخارجي): ويشمل كافة الأحداث المؤثرة والظروف المصاحبة للأداء الكلامي، والتي ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالواقع المحيط وتلعب دورًا حاسمًا في توجيه الفهم المراد من الحديث.

وبناءً على ما سبق، يُمثل السياق بشقيه حلقة الوصل الديناميكية التي تربط بين جميع أركان العملية التواصلية. فهو يفسر العلاقة بين المتكلم ومقصده الحقيقي، وبين المخاطب ومدى قدرته على الاستيعاب والتلقي، وبين الواقع أو الموقف المفروض الذي قيل فيه الكلام. إن مراعاة هذه العناصر مجتمعة هي التي تضمن وصول المعاني والحقائق بوضوح تام، وتمنع أي لبس أو تداخل في الدلالات مهما اتحدت المدلولات ظاهرياً، مما يجعله العامل الأهم في التأثير والاستجابة.

في الدراسات اللغوية في العصر الحديث نجد مصطلح "السياق" من أهم وأدق المصطلحات اللغوية والتي يعتبرها العلماء اللغويين عصية في معناها على التحديد اللغوي الدقيق، رغم أنها في حد ذاتها تمثل بوضوح نظرية دلالية تعد من أهم النظريات لمتعلقة بعلم الدلالة والذي يعتبر من أقواها تماسكاً وأكثرها وضوحاً وأضبطها منهجاً وفهماً ودقة. [6]

كما أن السياق ركن أصيل من أركان علم الدلالة وهو بوضوح أحد أهم أركانها وأسسها الكبيرة التي ترتكز عليها ونجد أن العلماء والمفكرين في الحقيقة كانوا يغفلون هذه المعاني بهذا الوضوح وذلك الشكل المفصل فمثلا نجد من أمثلة إغفال الناس لمفهوم السياق المقصود في قوله تعالى: {أَهْلَ الذِّكْرِ} فالمقصود بهم أهل الكتاب، ولعل ذلك واضح بشكل أدق في قوله تعالى:

[1] عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، 138/2.
[2] عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1964)، 93/2.
[3] صالح، أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية، 1/1.
[4] أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب (القاهرة: عالم الكتب، 2003)، 167.
[5] عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه: دراسة ونقد (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت)، 128.
[6] محمد سالم صالح، أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية (جدة: كلية المعلمين، د.ت)، 1/1.

{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ}[1] فالسياق هنا يدل على أن المقصود التوراة وكذلك قوله سبحانه في كتابه الكريم: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ}. [2] فإن ذلك غاية في الوضوح كما هو الحال أمامكم، فإن كنتم بهذا تشكون في ذلك أي تشكون في كونهم رجلا مثل النبي محمد صلى الله عليه وسلم فما عليكم إلا أن تسألوا الأمم السابقة ومن كانوا قبلكم، فهم أعرف منكم في الأمر، أي الذي سبقكم في العلم ومن هم لديهم الخبرة بأمر الرسل لذلك قال سبحانه: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [3] أي (أهل الكتاب) [4] إن كنتم لا تعلمون، فهم أعرف منكم بالأمر كله.

لذلك نجد العلامة الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره حول هذه الآية يقول إن المقصود بالكتاب (التوراة) وقال في ذلك أيضا الإمام الزجاج، أي اسالوا الذين من قبلكم من أهل الكتاب الذين لديهم العلم والمعرفة والذين يعرفون معاني الكتب التي نزلت من عند الله تعالى ومن المكن أن يبينوا لكم عند الرجوع إليهم. فأهل التوراة هم أعرف الناس وأعلمهم بذلك ويعرفون كذلك أيضاً أن الأنبياء كلهم بشر اختارهم الله تعالى واصطفاهم على سائر خلقه فالعالم بالشيء يكون ذاكراً له عارفاً به أهل الذكر أهل العلم بأخبار الماضين، إذ العالم بالشيء يكون ذاكراً له. [5]

ومن خلال النظر والتأمل في أصول هذا العلم وقواعده يتبيّن أن الإمام سيبويه يُعدّ من أوائل من أسّس له وقعّد مبادئه، إذ كشف عن جذوره وأرسى دعائمه في كتابه الشهير الكتاب، فكان له فضل السبق في ضبط كثير من مسائله وتقعيدها. وقد عرض تقسيمًا دقيقًا للعلاقة بين الألفاظ والمعاني، مبيّنًا اختصاص كل لفظ بما يلائمه من معنى، مع توضيح صور الاتفاق والاختلاف بينهما؛ ففرّق بين اختلاف اللفظ والمعنى، واختلاف اللفظ مع اتحاد المعنى، واتفاق اللفظ مع اختلاف المعنى، وشرح هذه الظواهر شرحًا مفصّلًا يكشف عن دقة نظره وعمق تحليله. ويظهر ذلك جليًا في قوله: «اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين»، ثم مثّل لذلك بقولهم: «ذهب» و«جلس» لاختلاف المعنى، و«ذهب» و«انطلق» لاتحاد المعنى.[6] وبهذا أسهم سيبويه في وضع أساس منهجي راسخ لدراسة العلاقة بين اللفظ والمعنى، كان له أثر بالغ في تطور الدرس اللغوي والدلالي.

ومما قرّره العلامة ابن سيده في هذا الباب، تأكيده أن الإمام سيبويه يُعدّ من أوائل من فصلوا القول في العلاقة بين اللفظ والمعنى وأصلوا قواعدها؛ إذ أشار إلى ما أورده سيبويه في صدر كتابه من تقسيم دقيق لأنماط هذه العلاقة، بقوله: «اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين».[7] ويكشف هذا التقسيم عن مبدأ منهجي بالغ الأهمية، وهو أن اختلاف الألفاظ تبع لاختلاف المعاني يعدّ الأصل القياسي في الاستعمال اللغوي، إذ ينبغي -في الوضع الأمثل -أن يختص كل معنى بلفظ يدل عليه دون لَبس أو تداخل، حتى تتمايز الدلالات وتتضح الحدود بينها.

غير أن الاستعمال اللغوي لا يقتصر على هذا الأصل، بل يتسع لظاهرة الترادف، حيث قد تتعدد الألفاظ لمعنى واحد، وهو ما يخدم أغراضًا بلاغية ووظيفية، من أبرزها تجنّب التكرار المباشر الذي تستثقله الذائقة العربية. فالمتكلم قد يعدل عن إعادة اللفظ نفسه إلى لفظ آخر يشاركه المعنى، تحقيقًا للتنوع وتحسينًا للأسلوب؛ فيقال مثلًا: «قعد» و«جلس» للدلالة على معنى متقارب،[8] فيكون هذا التنويع أبلغ وأخف من إعادة اللفظ ذاته. ومن هنا يظهر أن اختلاف الألفاظ مع اتحاد المعنى[9] ليس خروجًا عن النظام، بل هو توسّع مقصود تقتضيه البلاغة.

ويؤيد ذلك ما نجده في التعبير القرآني، كقوله تعالى: {وَغَرَابِيبُ سُودٌ}،[10] حيث دلّ اللفظان على معنى واحد تقريبًا، إذ

[1] سورة الأنبياء 105/21.
[2] سورة يوسف 109/12.
[3] سورة النحل 43/16.
[4] محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (مكة المكرمة: دار التربية والتراث)، 208/17.
[5] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب (تفسير الرازي) (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1999)، 196/20.
[6] سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975)، 24/1. بتصرف.
[7] علي بن إسماعيل ابن سيده، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1996)، 173/4.
[8] عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب)، 312/2.
[9] أحمد بن محمد ابن الرفعة، كفاية النبيه في شرح التنبيه، تحقيق: مجدي محمد سرور باسلوم (بيروت: دار الكتب العلمية، 2009)، 295/2.
[10] سورة فاطر: 27/35.

«الغرابيب» هي شديدة السواد،[1] ومع ذلك حَسُن الجمع بينهما لاختلاف اللفظين، لما في ذلك من تقوية المعنى وتوكيده بأسلوب بليغ. [2] فلو اتحد اللفظ تمامًا لم يتحقق هذا الأثر البلاغي. وبذلك يتضح أن العلاقة بين اللفظ والمعنى في العربية محكومة بميزان دقيق يجمع بين القياس اللغوي والاعتبار البلاغي، وهو ما تنبّه إليه سيبويه وأكّده ابن سيده في تحليله.

وأما القسم الثالث فيتناول ظاهرة اتفاق الألفاظ في بعض الدلالات مع اختلافها في أصل الوضع، وهي ظاهرة لا يُقصد بها ابتداءً أن يُوضع للمعنى الواحد أكثر من لفظ، بل ترجع -في الغالب -إلى تداخل اللغات أو اللهجات العربية، أو إلى انتقال اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر بطريق الاستعارة وكثرة الاستعمال، حتى يغلب فيه ويصير كأنه المعنى الأصيل له. ومن هنا قد يظهر أن لفظين مختلفين يدلان على معنى واحد، مع أن كلاً منهما في الأصل موضوع لمعنى خاص.

وقد ذهب بعض العلماء إلى إنكار وقوع الترادف التام، كما نُقل عن محمد بن السري عن أحمد بن يحيى، إذ يرى أن اختلاف الألفاظ يقتضي اختلافًا ما في المعاني، وأن ما يبدو ترادفًا يمكن تفسيره إما بردّه إلى فروق دقيقة بين الألفاظ، أو إلى كونه منقولًا بالسماع دون أن يدل على تطابق تام في الدلالة، ويؤيد هذا الاتجاه ما حكاه أهل اللغة من كثرة الشواهد التي تدل على أن لكل لفظة خصوصية دلالية تميزها، وإن اشتركت مع غيرها في أصل المعنى.

فالألفاظ التي تبدو مترادفة تحمل في حقيقتها ظلالًا معنوية دقيقة لا توجد في غيرها؛ فلفظة «مضى» مثلًا تفيد من الرسوخ والانقضاء ما لا تؤديه «ذهب» على وجه التمام. وكذلك التراكيب المختلفة، كقولك: «ضربتك» و «ما ضربتُ إلا إياك»، أو «جئتني» و «ما جاءني إلا أنت»،[3] فإنها – مع اشتراكها في أصل المعنى – تختلف فيما تضيفه من دلالات التوكيد أو الحصر أو التخصيص،[4] وهو ما يتجاوز مجرد الإخبار إلى بناء معنى أدق وأغنى.

وبذلك يتبين أن ما يُظن ترادفًا مطلقًا إنما هو تقارب في المعنى لا تطابق فيه، وأن كل لفظ يحمل قدرًا من الخصوصية الدلالية التي تُثري التعبير وتُسهم في بناء المعنى في سياقه، وهو ما يجعل اللغة أكثر مرونة ودقة، ويكشف عن تداخل الدلالة بالسياق في إنتاج المعنى وإتمامه. [5]

وقد قرّر الإمام سيبويه جواز أن تدلّ اللفظة الواحدة على أكثر من معنى، ولو اختلفت هذه المعاني، وهو ما يُعرف بتعدد الدلالة أو الاشتراك اللفظي، حيث تتسع الكلمة في الاستعمال العربي لتؤدي معاني مختلفة يُعين السياق على تحديد المراد منها. ومن أبرز أمثلة ذلك لفظ «الظن»، الذي يَرِد في العربية بمعنى الحسبان والشك، وهو في الأصل مقابل لليقين، غير أنه قد يُستعمل أيضًا بمعنى العلم الجازم واليقين، بحسب السياق الذي يرد فيه.

وقد جاء هذا الاستعمال في القرآن الكريم في مواضع تدل بوضوح على معنى اليقين، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾،[6] أي يوقنون بذلك يقينًا لا شك فيه. وكذلك قوله سبحانه: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾، حيث فُسِّر الظن هنا بمعنى العلم واليقين. [7] وقد نبّه الإمام ابن جرير الطبري إلى هذه الظاهرة، مبيّنًا أن العرب قد تستعمل اللفظ الواحد للدلالة على معنيين متقابلين، فيطلقون «الظن» على اليقين كما يطلقونه على الشك، شأنه في ذلك شأن ألفاظ أخرى تحتمل معاني متضادة بحسب السياق. [8]

وهذا الاستعمال ليس شاذًا ولا مُشكلًا في العربية، بل هو أمر مطّرد تعرفه العرب في كلامها، ولا يوقع في لبس؛ لأن السياق هو الذي يحدد المعنى المقصود ويمنع التداخل أو الإبهام. ومن هنا تتجلى أهمية السياق بوصفه العنصر الحاكم في توجيه الدلالة، إذ يرفع الاشتراك ويُعيّن المراد من اللفظ، فيكشف عن مرونة اللغة العربية وقدرتها على استيعاب تعدد المعاني ضمن نظام دلالي منضبط.

---

[1] علي بن أحمد الواحدي، التفسير البسيط (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عمادة البحث العلمي، 2009)، 420/18.
[2] الرازي، تفسير الرازي، 236/26.
[3] يعيش بن علي ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري (بيروت: دار الكتب العلمية، 2001)، 293/2.
[4] محمد بن القاسم الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق: حاتم صالح الضامن (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1992)، 55/1.
[5] ابن سيده، المخصص، 173/4.
[6] سورة البقرة: 45/2.
[7] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 255/1.
[8] أبو الفداء محمد بن إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة (المدينة المنورة: دار طيبة للنشر-1999).

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾،[1] إذ عبّر القرآن بلفظ «الطمع» للدلالة على رغبتهم في دخول الجنة، غير أن هذا الطمع لا يُفهم على أنه مجرد رجاءٍ متردد، بل يحمل في سياقه معنى أعمق يقارب اليقين المقرون برجاء الرحمة؛ لأن المقام مقام إيمان وثبات، وليس مقام شك أو تردد، ولا سيما أن أحوال الآخرة لا تحتمل الظن بمعناه المتردد، بل تقوم على العلم واليقين. ومن هنا كان الطمع في هذا السياق دالًا على رجاء قويٍّ مشوب بالثقة، وهو ما يقارب معنى اليقين في وجدان المؤمن.

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾،[2] فإن طمع النبي هنا ليس شكًّا، بل هو رجاء قائم على العلم بالله وحسن الظن به، مما يجعله أقرب إلى اليقين منه إلى التردد. فالسياق الإيماني هو الذي نقل اللفظ من دلالته الأصلية إلى دلالة أعمق تتصل باليقين والاطمئنان.

وتؤكد هذه الظاهرة ما عُرف في العربية من استعمال الألفاظ في معانٍ متعددة، قد تتباين أو حتى تتقابل، بحسب اختلاف السياقات واللهجات. فقد يُستعمل اللفظ الواحد لمعنيين مختلفين أو متضادين، كما في قولهم: «بعتُ» بمعنى بعتُ واشتريتُ،[3] و «شرَيتُ» كذلك،[4] أو «لمقتُ الشيء» بمعنى كتبته عند بعض العرب، وبمعنى محوته عند غيرهم. [5] وهذا التنوّع في الدلالة لا يوقع في لَبس، لأن السياق هو الذي يحدد المراد بدقة، ويكشف عن المعنى المقصود دون إشكال.

وبذلك يتضح أن تعدد الدلالات ليس خللًا في اللغة، بل هو مظهر من مظاهر ثرائها ومرونتها، وأن السياق يظل الأداة الحاسمة في توجيه المعنى وتحديد المقصود، سواء في النص القرآني أو في الاستعمال العربي عمومًا.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾،[6] حيث عبّر القرآن الكريم بلفظ «الطمع» للدلالة على شدة رغبتهم في دخول الجنة، غير أن هذا الطمع لا يُفهم على أنه مجرد رجاءٍ ضعيف أو تردد، بل يدل في سياقه على رجاء قويٍّ مقترن باليقين؛ إذ إن مقام الآخرة لا يحتمل الشك أو الظن بمعناه المتردد، بل يقوم على الحقائق الثابتة التي لا لبس فيها. [7] ومن ثمّ فإن الطمع هنا يُحمل على معنى التطلع المقرون بالثقة، أو اليقين الذي استقر في نفوس المؤمنين، خاصة من رسخ إيمانهم واطمأن قلبهم بوعد الله.

ويؤكد هذا المعنى ما ورد على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾،[8] إذ لا يمكن أن يُفهم طمعه على أنه شك، وهو خليل الرحمن العارف بربه، وإنما هو رجاء قائم على العلم واليقين بحسن ظنّه بالله تعالى. وعليه، فإن لفظ «الطمع» في مثل هذه السياقات يتجاوز دلالته المعجمية المباشرة إلى معنى أعمق يحدده السياق الإيماني، حيث يتداخل الرجاء مع اليقين، فينتج دلالة مركبة تعبّر عن ثقة المؤمن بوعد الله مع تعلّق قلبه برحمته.

ويُستدلّ على ذلك بما جرى عليه لسان العرب من استعمال اللفظ الواحد في معانٍ مختلفة، قد تبدو متباعدة أو حتى متقابلة، غير أنّ السياق كفيلٌ برفع هذا الإشكال وتحديد المراد منها بدقة؛ فقد جاء في كلامهم: «لَمَقْتُ الشيءَ» بمعنى كتبته في لغة عُقيل، وبمعنى محوته في لغة قيس، كما قيل: «اجلعَبَّ الرجل» أي اضطجع وسقط، و«اجلعَبَّت الإبل» أي مضت مسرعة في طريقها. [9]

ومن هنا يتضح أن التعدد الدلالي في العربية ليس اضطرابًا، بل هو ظاهرة طبيعية مألوفة، تُضبط بآلية السياق التي تُنظّم المعنى وتوجهه. ولهذا عدّ كثير من العلماء ما يُسمّى بالسياق – أو «المقام» في اصطلاح القدامى – أساسًا لفهم الخطاب، بل يمثل في جوهره ما يُعرف في الدراسات الحديثة بعلم الدلالة الوصفي أو التداولي، إذ يرتبط بالجانب الاجتماعي والتواصلي

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 417/2، والآية من سورة الأعراف 46/7.
[2] سورة الشعراء: 82/26.
[3] علي بن سعيد الرجراجي، مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة وحل مشكلاتها، تحقيق: أبو الفضل الدميَاطي، وأحمد بن علي (بيروت: دار ابن حزم، 2007)، 265/6.
[4] سلمة بن مسلم العوتبي، الإبانة في اللغة العربية، تحقيق: عبد الكريم خليفة وآخرون (مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، 1999)، 294/3.
[5] القاسم بن سلام، الغريب المصنف، تحقيق: محمد المختار العبيدي (تونس: بيت الحكمة، دار سحنون، 1996)، 623/2.
[6] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 417/2، والآية من سورة الأعراف 46/7.
[7] مكي بن أبي طالب القيسي، مشكل إعراب القرآن، تحقيق: حاتم صالح الضامن (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985)، 292/1.
[8] سورة الشعراء: 82/26.
[9] ابن سيده، المخصص، 4/174.

للغة، ويأخذ في الحسبان القرائن المصاحبة للكلام والظروف التي يُقال فيها. وبهذه القرائن والسياقات تتحدد مقاصد المتكلم وتُفهم دلالات الألفاظ على وجهها الصحيح.

وقد أشار بعض اللغويين المحدثين، كأولمان، إلى هذه الحقيقة حين بيّن أن المعنى لا يُدرك في عزلة، بل يتكوّن عبر ترابط الأحداث والسياقات التي تحيط بالكلام، وأن قيمة السياق تظهر جلية في تتبع تطور دلالة اللفظ عبر الزمن، حيث تتراكم المعاني وتتشابك ضمن استعمالاته المختلفة. [1] وبذلك يغدو السياق العنصر الحاسم في تفسير الدلالة، والميزان الذي تُفهم به الألفاظ في امتدادها التاريخي والاستعمالي.

ويُعدّ السياق العاطفي من أهم المستويات التي تسهم في توجيه الدلالة، إذ يعمل بوصفه ميزانًا دقيقًا لقياس درجة الانفعال وقوته في الخطاب؛ فهو الذي يبيّن ما إذا كان التعبير يحمل معنى معتدلًا أو مشحونًا بعاطفة قوية. ومن هنا يظهر الفرق بين الألفاظ المتقاربة في أصل معناها، مثل «يكره» و«يبغض»، فهما يشتركان في الدلالة العامة على النفور، غير أن «البغض» أقوى دلالة وأشدّ أثرًا من «الكره»، وهو ما لا يُدرك على وجه الدقة إلا من خلال السياق الذي يرد فيه اللفظ، إذ يحدد درجة الانفعال المقصودة ويوجّه فهمها.

كما يتجلى أثر السياق بوضوح في سياق الموقف الخارجي، حيث يتحدد معنى اللفظ تبعًا للظروف التي يُستعمل فيها؛ فقولك «يرحمك الله» يختلف مدلوله بحسب المقام، فهو عند تشميت العاطس دعاء مخصوص يُقابل بردّ «يهديكم الله»، بينما يأتي في سياق آخر بمعنى الترحم على الميت. [2] وعلى الرغم من وحدة الصيغة اللفظية، فإن اختلاف السياق كفيل بتحديد المعنى المراد دون لبس أو إشكال.

وبذلك يتبيّن أن الألفاظ لا تُفهم في ذاتها مجردة، بل في ارتباطها بالسياق الذي تَرِد فيه، سواء أكان سياقًا عاطفيًا يحدد شدة الانفعال، أم سياق موقف يعيّن المقصود من الكلام. وهذا ما يمنح اللغة مرونتها وقدرتها على التعبير الدقيق، ويجعل السياق عنصرًا حاسمًا في توجيه الدلالة وإزالة الالتباس، مهما بدا من تقارب أو تشابه بين الألفاظ.

2.1. أثر السياق ودلالته في المعنى:

في الحقيقة، يقوم بين تاريخ الكلمة وتاريخ الحضارة ارتباط وثيق لا يمكن فصله، إذ تتأثر الألفاظ بما يطرأ على المجتمعات من تحولات فكرية وثقافية واجتماعية، كما تعكس في الوقت ذاته طبيعة تلك التحولات وملامحها. ومن هنا لا يصحّ دراسة تاريخ الألفاظ بمعزل عن السياق الحضاري والاجتماعي الذي نشأت فيه وتطورت ضمنه، لأن الكلمة ليست كيانًا لغويًا جامدًا، بل هي وعاء حيّ يحمل آثار التجربة الإنسانية عبر الزمن.

وعلى هذا الأساس، فإن تتبّع دلالات الألفاظ يقتضي النظر في السياقات التي استُعملت فيها، سواء في مراحلها الأولى أو في تطوراتها اللاحقة؛ إذ قد تنتقل الكلمة من معنى إلى آخر، أو تتسع دلالتها أو تضيق تبعًا لتغير الاستعمال وتبدل الظروف. ومن هنا تتجلى قيمة السياق في دراسة المعنى، حيث يسهم في تحديد الدلالات المتجاورة للفظ الواحد، سواء بسبب الاشتراك اللفظي أو نتيجة التطور الدلالي عبر الزمن، مما يتيح فهمًا أدق لمسار الكلمة ووظيفتها في الخطاب. [3]

أما في ألفاظ القرآن الكريم وآياته، فإن الدلالة لا تقف عند حدود المواضعة اللغوية الأولى، بل تتجاوزها في كثير من الأحيان إلى معانٍ اصطلاحية شرعية أو عقدية، وذلك عبر آلية التأويل التي تقوم على نقل اللفظ من دلالته الأصلية إلى دلالة أعمق يقتضيها السياق النصي والاعتقادي. وهذا الانتقال الدلالي لا يتم عشوائيًا، بل يخضع لمنظومة من القواعد والآليات المستمدة من بنية النص القرآني ذاته، ومن نظام اللغة العربية في استعمالها التداولي.

فالكلمة القرآنية قد تبدأ بوصفها علامة لغوية تشير إلى معنى حسي أو معجمي، ثم تتطور دلالتها لتصبح حاملة لمعنى عقلي أو عقدي أوسع، وهو ما يُعرف بالنقل الدلالي أو التوسّع في المعنى. وهذا التحول يعكس انتقال اللفظ من المجال العرفي المباشر إلى مجال الاستدلال العقلي، حيث تُفهم الدلالة في ضوء السياق الكلي للنص، لا في حدود معناها المعجمي الضيق.

[1] نعمان بوقرة، النظرية اللسانية عند ابن حزم الأندلسي: قراءة نقدية في مرجعيات الخطاب اللساني وأبعاده المعرفية (الجزائر، د.ت)، 55/1.
[8] علاء إسماعيل الحمزاوي، الأمثال العربية والأمثال العامية: مقارنة دلالية (القاهرة: دار العلم والإيمان للنشر، 2015)، 14/1.
[3] صالح، أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية، 55/1.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك استعمال أدوات الاستفهام أو الألفاظ المرتبطة بالمكان، مثل «أين»، التي وُضعت في أصلها للسؤال عن المكان، غير أنها قد تُستعمل في سياقات لا يراد بها المعنى المكاني الحسي، بل يُقصد بها معنى آخر يُفهم من السياق. فاستعمالها في الخطاب العقدي لا يُحمل على ظاهره المكاني، بل يُؤوَّل بما يوافق التنزيه الإلهي، فيكون انتقالًا من الدلالة الحسية إلى الدلالة العقلية.

وقد عرفت العربية هذا النمط من التوسّع في الاستعمال؛ فيقال مثلًا: «أين فلان من فلان»، ولا يُراد به البعد المكاني، بل المفاضلة في المنزلة والقدر،[1] كما يقال: «فلان في السماء»، أي رفيع الشأن عظيم المنزلة، لا أنه في موضع مكاني حقيقي.[2] وبهذا يتبين أن الدلالة في القرآن الكريم – كما في العربية عمومًا – تتشكل في ضوء السياق، وأن الانتقال من المعنى الحسي إلى المعنى العقلي أو العقدي هو انتقال من نظام العلامة إلى نظام الدلالة، حيث يغدو اللفظ أداة لفهم أعمق يتجاوز ظاهره إلى مقاصده.

ويُلحظ في هذا السياق جانبٌ آخر ذو أهمية، يتمثل في الألفاظ القرآنية والصيغ التي لا يقع فيها اختلاف بين القراءات من حيث البنية اللفظية، وإنما يكون محلّ الاختلاف في الدلالة والمعنى المستفاد منها؛ إذ إن اللفظ القرآني بطبيعته يتسع لأكثر من وجه دلالي، وهذا التعدد لا يرجع فحسب إلى اختلاف اجتهادات المفسرين أو تباين آرائهم، بل ينبع في أساسه من طبيعة اللغة القرآنية نفسها وما تنطوي عليه من طاقة دلالية غنية تستوعب أكثر من معنى في إطار السياق الواحد.[3]

ومن هنا يظهر أن قوة الدلالة ووضوح البرهان يسهمان في ترسيخ المعنى في النفس وإحداث الطمأنينة واليقين، وهو ما أشار إليه قوله تعالى على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾،[4] حيث اقترن ازدياد البيان بازدياد السكون النفسي. فكلما كان المعنى أوضح وأدلّ عليه السياق والقرائن، كان أثره في النفس أرسخ وأثبت.

ويتصل بهذا المعنى ما نجده في استعمالات العرب، كقولهم: «أثبته» أي حبسه ومنعه من الحركة، وقولهم: «مريضٌ مُثْبَت» أي ملازم لموضعه لا يستطيع النهوض، وهو استعمال يُبرز كيف تنتقل الدلالة من أصلها إلى معنى يلازمه أو يترتب عليه،[5] في ضوء السياق الذي يحدد المراد. وبذلك تتكامل الدلالة بين اللفظ والسياق، ويغدو المعنى أكثر تحديدًا وثباتًا في ذهن المتلقي.

ولا يغيب عن هذا السياق أن للعناصر الصوتية والصرفية الدقيقة أثرًا بالغًا في توجيه المعنى، وفي مقدمتها الحركات؛ إذ كان لضبطها دور أساس في نشأة علم النحو وتقعيده، صونًا للمعنى من اللبس والانحراف. فاختلاف الحركة على الحرف الواحد قد يفضي إلى اختلاف في الوظيفة النحوية، ومن ثمّ إلى تغيّر في الدلالة، وهو ما يكشف عن حساسية البنية اللغوية العربية ودقتها.

ولا يقتصر الأمر على الحركات، بل يتعداه إلى ما هو أدقّ منها، كالنقطة التي توضع على الحرف؛ إذ قد يؤدّي اختلاف موضعها إلى انتقال الكلمة من معنى إلى آخر، ومن سياق إلى سياق مغاير، بما يبرز الأثر العميق لأدقّ الوحدات الخطية في بناء الدلالة. ومن هنا يتبيّن أن المعنى في العربية لا يتشكل على مستوى الكلمة فحسب، بل يمتد إلى ما دونها من وحدات.

وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الحقيقة حين نبّه إلى أن الدلالة لا تقتصر على الألفاظ المفردة، بل تشمل الحروف والأدوات، بل وحتى الحركات، بوصفها عناصر فاعلة في إنتاج المعنى. وعلى هذا الأساس، يمكن القول إن البنية الدلالية في العربية نظام متكامل تتضافر فيه المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية، بحيث يسهم كل عنصر -مهما دقّ -في توجيه المعنى وتحديده ضمن سياقه.[6]

ويتضح كذلك أن السياق يؤدي دورًا حاسمًا في تعيين الدلالة المقصودة من الكلام في كليّته، فلا تُفهم الألفاظ على وجهها الصحيح إلا ضمن الإطار الذي ترد فيه. وقد أدرك العلماء هذه الحقيقة منذ وقت مبكر، فنبّهوا إلى أهمية السياق والمقام، وعبّروا عن ذلك بقولهم المشهور: «لكل مقام مقال»، إشارةً إلى أن اختيار الألفاظ وتوجيه معانيها مرتبطان بطبيعة الحال التي يُقال فيها الكلام. فالسياق لا يقتصر على البنية اللغوية للنص، بل يشمل أيضًا الظروف المحيطة به، من حال المتكلم

[1] محمد بن الحسن ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه، تحقيق: موسى محمد علي (بيروت: عالم الكتب، 1985)، 159.
[2] محمد بن الحسين ابن الفراء، إبطال التأويلات لأخبار الصفات، تحقيق: محمد بن حمد الحمود (الكويت: غراس للنشر والتوزيع، 2013)، 278.
[3] صالح، أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية، 198؛ وانظر: دراسات في اللهجات العربية (القاهرة: مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، 46-.
[4] سورة البقرة: 260/2.
[5] محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، 3/4.
[6] عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، تحقيق: خليل شحادة (بيروت: دار الفكر، 1981)، 766/1.

والمخاطَب، والزمان والمكان، والغاية من الخطاب.

ومن هنا، فإن السياق يعمل على تهيئة البيئة الكاملة لفهم المعنى، حيث تتضافر فيه عناصر متعددة، منها التعبير المنطوق، ونبرة الأداء، والقرائن المصاحبة، وكلها تسهم في تحديد الدلالة المراد إيصالها. وقد أولى علماء اللغة عناية كبيرة للمنطوق وما يرافقه من إشارات دلالية، مركزين على الرسالة المقصودة من الكلام، وعلى الأحوال التي تؤثر في توجيهه وفهمه.

وبناءً على ذلك، فإن الكلمة لا تستقل بمعناها خارج السياق الذي ترد فيه، بل قد يتحد مدلولها المعجمي وتختلف دلالتها بحسب السياق الذي استُعملت فيه، أو بحسب أحوال المتكلمين وظروف الزمان والمكان. وهذا ما يجعل السياق عنصرًا أساسًا في بناء المعنى، ومرجعًا لا غنى عنه في فهم الخطاب على وجهه الصحيح. [1]

وقد نبّه العلامة ابن خلدون إلى أن المعنى لا يُدرك مجردًا، بل لا بد أن تكتنفه أحوالٌ وظروفٌ وأحداثٌ تحيط به وتعين على فهمه، مما يوجب مراعاتها عند تأدية المعنى في جميع الألسن؛ غير أن اللسان العربي يتميّز بقدرته على تمثيل هذه الأحوال من خلال ما يكتنف تراكيب الألفاظ من خصائص وكيفيات دلالية دقيقة. فالمعنى في العربية لا يُفهم من اللفظ وحده، بل من مجموع ما يحيط به من قرائن سياقية وتركيبية. [2]

ومن هنا تبرز خصوصية الكلام العربي، الذي عُرف بالإيجاز وكثافة الدلالة، حيث يجمع بين قلة الألفاظ وعمق المعاني، فيبلغ الغاية بأقصر عبارة وأوضح تركيب. وقد تفاوتت مراتب الكلام عند العرب تبعًا لتفاوت الدلالة ومقتضيات الحال، فجاء كلامهم أوجز وأدلّ، مع محافظته على وضوح العبارة ودقة التعبير، وهو ما جعله متميزًا عن غيره من الألسن.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الخصيصة بقوله: «أوتيت جوامع الكلم»،[3] أي القدرة على احتواء المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة. ويتجلى ذلك بوضوح في تنوّع الأساليب التي قد تبدو في ظاهرها متقاربة، لكنها تختلف في دلالتها باختلاف السياق وحال المخاطَب. فقولهم: «زيد قائم» يُلقى إلى خالي الذهن الذي لا يحتاج إلى توكيد، أما «إنّ زيدًا قائم» فيُوجَّه إلى من سمع الخبر ولكنه متردد فيه، فيحتاج إلى تأكيد، وأما «إنّ زيدًا لقائم» فتُقال لمن يُنكر الخبر ويجحده، فتأتي مؤكدة بوسيلتين لدفع إنكاره. [4]

وعليه، فإن هذه الصيغ ليست تكرارًا لمعنى واحد، بل هي تعبيرات متفاوتة الدلالة بحسب اختلاف الأحوال والمقامات. فكل صيغة منها تحمل وظيفة دلالية خاصة، وتضيف معنًى جديدًا يقتضيه السياق، وهو ما يدركه صاحب الفهم الدقيق الذي يضع كل تعبير في موضعه المناسب. ومن هنا يتبين أن التقارب الظاهري بين هذه الأساليب لا يلغي ما بينها من فروق دقيقة، بل يكشف عن ثراء اللغة العربية وقدرتها على تنويع التعبير وفق مقتضى الحال.

2. السياق عند النحاة:

لم يكن مفهوم السياق غائبًا عن وعي العلماء القدماء، بل عرفوه لفظًا ومعنى، وإن لم يصوغوه بالمصطلح الاصطلاحي المتداول اليوم؛ فقد كان حاضرًا في استعمالاتهم اللغوية واليومية، مندمجًا في طرائق تعبيرهم وتفاعلهم، مما أكسب كلامهم رقةً وعذوبةً وتناسقًا وجمالًا. وقد استعمل النحاة لفظ «السياق» بدلالته اللغوية المعروفة آنذاك، دون أن يحمل الإطار المفهومي الدقيق الذي استقرّ عند المحدثين في علم الدلالة والتداولية.

ومع ذلك، فإن تأمل تراثهم يكشف أنهم لم ينظروا إلى اللغة بوصفها بنية شكلية منفصلة عن الواقع، بل أدركوا صلتها الوثيقة بالحياة الاجتماعية، وتعاملوا معها باعتبارها نشاطًا إنسانيًا يتأثر بالبيئة والظروف المحيطة ويعبّر عنها. وفي هذا المعنى يبيّن الدكتور كمال بشر أن علماء العربية لم يقصروا عنايتهم على تحليل بنية النص في ذاته، بل ربطوه بالسياق الخارجي الذي يُنتَج فيه، وعدّوه انعكاسًا لما يعتمل في المجتمع من أحداث وعلاقات، ومن ثمّ كانت اللغة عندهم كيانًا حيًا نابضًا، يتفاعل مع محيطه ويؤثر فيه.

---

[1] صالح، أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية، 1/1.
[2] ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، 766/1.
[3] أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2001)، 366/12.
[4] إبراهيم بن السري الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي (بيروت: عالم الكتب، 1988)، 415/3.

ومن هنا يتضح أنهم، وإن لم يضعوا نظرية مكتملة للسياق بمصطلحاتها الحديثة، فقد مارسوا هذا الوعي عمليًا في تحليلاتهم اللغوية، وأدركوا أن الكلام لا يُفهم إلا في ضوء المقام، وأن له وظيفة أساسية في تحقيق التواصل بين الناس. وبذلك يظهر أن مفهوم السياق كان راسخًا في الفكر اللغوي القديم من حيث الممارسة والتطبيق، وإن لم يُصغ في قالب نظري مستقل كما هو الحال في الدراسات اللسانية المعاصرة. [1]

ويُلاحظ في هذا الباب أمرٌ جدير بالانتباه عند علماء اللغة، وهو أن بعض الباحثين المعاصرين الذين درسوا مفهوم السياق في التراث اللغوي قد أشاروا إلى أن النحاة في مرحلة التقعيد والتدوين، اعتمدوا في كثير من الأحيان على ما يمكن تسميته بالسياق الجزئي،[2] والمتمثل في الشواهد الشعرية والنثرية التي كانوا يستدلون بها، غالبًا منفصلة عن سياقاتها الكلية. وقد كان هذا المنهج نابعًا من طبيعة هدفهم الأساس، وهو الوصول إلى ضبط القواعد النحوية واستنباطها من كلام العرب الفصيح، فكان اعتمادهم على الشاهد الموثوق كافيًا لتحقيق هذا الغرض.

وإذا نظرنا إلى هذا المسلك في ضوء غايته، فإنه لا يُعدّ محلّ انتقاد، بل هو منهج له وجاهته العلمية في سياقه التاريخي، إذ استند إلى ما توفّر لديهم من مادة لغوية معتبرة، وسعى إلى تقعيد اللغة على أساس الاستعمال العربي الصحيح. غير أن الاقتصار على السياق الجزئي قد لا يكون كافيًا في بعض الأحيان لفهم الدلالة فهمًا تامًا، لأن عزل الشاهد عن سياقه الكامل قد يحجب بعض الأبعاد الدلالية التي لا تتجلى إلا ضمن النص الكلي.

ومن هنا تبرز الحاجة إلى استحضار السياق الكلي للنص، ولا سيما في النصوص الكبرى كالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، حيث تتكامل الدلالات وتتضح المعاني من خلال الترابط النصي والموضوعي. وبذلك يتبين أن منهج النحاة، وإن كان دقيقًا في مجال التقعيد، يحتاج إلى استكماله بالنظر السياقي الشامل عند دراسة الدلالة، لتحقيق فهم أعمق وأدق للنصوص اللغوية.

وقد خلص الباحث إلى جملة من النتائج المهمة التي تسهم في توضيح موقع مفهوم السياق في التراث اللغوي العربي، أولها أن مسألة السياق، سواء أكان لغويًا أم غير لغوي، لم تتبلور عند اللغويين القدماء -ولا سيما النحاة -في صورة نظرية متكاملة على النحو الذي استقرّ في الدراسات اللسانية الحديثة، غير أن ذلك لا ينفي وجود إشارات واعية وممارسات تطبيقية دالة في مؤلفاتهم، أدّت دورًا مهمًا في فهم اللغة وتحليلها ضمن سياقاتها المختلفة. [3]

وثانيها أن النحاة اعتمدوا اعتمادًا كبيرًا على ما يمكن تسميته بالسياق اللغوي الجزئي، المتمثل في الشواهد النحوية والتراكيب التي تُبرز الوظائف الإعرابية، كما لجؤوا إلى القرائن عند غياب العلامة الظاهرة، وهو ما يدل على وعيهم بأهمية السياق في توجيه المعنى. ومع ذلك، لم يغفلوا تمامًا عن سياق النص الكلي، بل نجد عند بعضهم إشارات واضحة إليه؛ فقد نظر الفراء إلى القرآن الكريم بوصفه نصًا متكاملًا، وعدّ القراءات القرآنية جزءًا من سياقه العام، وهو ما يؤكد إدراكهم لأهمية الترابط النصي، وقد سار على هذا النهج عدد من العلماء، مثل ابن السيد وغيره ممن اهتموا بهذا الجانب.

وثالثها أن علماء العربية أدركوا ما يُعرف في الدراسات الحديثة بسياق الموقف، وإن عبّروا عنه بمصطلحات مثل «الحال» أو دلالة الحال، حيث تناولوا عناصر الموقف اللغوي من متكلم ومخاطب وظروف محيطة، وبيّنوا أثرها في توجيه المعنى. وقدّموا في هذا المجال إسهامات لا يمكن إغفالها، إذ تقترب تصوراتهم إلى حدّ كبير من المفهوم الحديث لسياق الموقف في الدراسات التداولية، مما يدل على عمق نظرتهم وسبقهم في إدراك كثير من القضايا التي أعيد طرحها لاحقًا في اللسانيات الحديثة.

ولعل الخليل بن أحمد، وتلميذه سيبويه من بعده، يُعدّان من أبرز النحاة الذين أفادوا من السياق اللغوي في تحليلهم للتراكيب، إذ يكشف التأمل في تراثهما عن وعي مبكر بدور السياق في توجيه المعنى وتحديد الوظيفة النحوية. فقد لم يقتصرا على النظر إلى اللفظ في ذاته، بل ربطاه بالمقام الذي يرد فيه، وبالقرائن التي تحيط به، مما جعلهما من رواد توظيف السياق في الدرس اللغوي.

[1] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، 15/1.
[2] سعيد حوّى، الأساس في التفسير (القاهرة: دار السلام، 1985)، 423/1.
[3] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، 16/1.

ويظهر ذلك جليًا فيما نقله سيبويه عن الخليل في تحليل بعض الشواهد الشعرية، كقول الشاعر:

إذا تغنّى الحمامُ الورقُ هيّجني ... ولو تغرّبتُ عنها أمَّ عمّارِ [1]

حيث فهم الخليل من لفظ «هيّجني» أن الشاعر كان في حال تذكّر واستثارة شعورية، وأن هذا التهييج قد حرّك في نفسه ذكر «أم عمّار»، فكأن المعنى الكامن هو: ذكّرني بها أو حرّك شوقي إليها. وهذا الفهم لم ينبثق من اللفظ المفرد وحده، بل من السياق العام للبيت، وما يقتضيه من دلالة نفسية وعاطفية، وهو ما يُعرف بسياق الموقف. [2]

وكذلك ما يُنسب إلى الخليل وأبي عمرو في قولهم: «ألا رجلٌ إمّا زيدًا وإمّا عمروًا»، حيث لا يُفهم التركيب على ظاهره الإخباري، بل يُحمل على معنى التمني أو الطلب، وكأن المتكلم يرجو أو يتمنى حضور أحدهما. [3] فالسياق هنا -بما يتضمنه من حال المتكلم وغرضه -هو الذي وجّه المعنى وأضفى عليه هذه الدلالة. [4]

ومن خلال هذه الأمثلة يتبيّن أن الخليل لم يكن يفسّر التراكيب بمعزل عن سياقها، بل كان يستحضر عناصر الموقف وما ينطوي عليه الكلام من قرائن خفية، مما يدل على أن ما يُسمّى اليوم بسياق الموقف كان حاضرًا في تحليلاته، وإن لم يُصغ بالمصطلح الحديث. وهذا يكشف عن عمق النظر عند النحاة الأوائل، وإدراكهم أن المعنى لا يُستنبط من اللفظ وحده، بل من تفاعله مع السياق الذي يرد فيه.

ويتجلى اعتماد الخليل بن أحمد وسيبويه على السياق بأوضح صوره في تحليل النصوص القرآنية، حيث تتداخل الدلالة اللغوية مع القرائن السياقية لإنتاج المعنى. فقد سأل سيبويه أستاذه الخليل عن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إذا جاؤوها وَفُتِحَت أَبوابُها﴾،[5] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَو يَرى الَّذينَ ظَلَموا إِذ يَرَونَ العَذابَ﴾،[6] فبيّن الخليل أن العرب قد تحذف جواب الشرط أو الخبر في مثل هذه المواضع اعتمادًا على علم المخاطَب به، واستغناءً عنه بدلالة السياق. فالمعنى هنا يُفهم ضمناً من المقام، إذ يترك النص المجال لتقدير الجواب بحسب ما يقتضيه الحال، فيتخيله السامع على وجه أبلغ وأعمّ من التصريح به.

وهذا الحذف ليس نقصًا في التعبير، بل هو من أساليب البلاغة التي تعتمد على إشراك المتلقي في بناء المعنى، حيث يؤدي السياق دورًا محوريًا في توجيه الفهم واستحضار الدلالة المقصودة. فحين يُترك الجواب محذوفًا، فإن الذهن يتجه إلى استحضار ما يناسب المقام من معانٍ، وهو ما يحقق أثرًا دلاليًا أعمق من التصريح.

ومن هنا يظهر بوضوح أن الخليل بن أحمد قد اعتمد اعتمادًا صريحًا على السياق بنوعيه: اللغوي، من خلال البنية التركيبية للنص، وغير اللغوي، من خلال المقام والقرائن المحيطة بالكلام، في تفسير التراكيب وتوجيه دلالاتها. وقد سار سيبويه على هذا النهج، فاعتنى بالسياق عناية كبيرة، وأدرك دوره في بيان المعاني، فجمع بين النظر في السياق اللغوي داخل النص، وسياق الحال الخارجي، مما جعله من أوائل من وعوا أهمية السياق في التحليل اللغوي، وإن لم يصوغوه بالمصطلح الحديث. [7]

3. عمق السياق وأثره في ثبوت الدلالة:

يُظهر التأمل في تراث علماء اللغة أن مفهوم السياق عندهم يتسم بسعة وعمق بالغين، إذ أدركوا أنه يمثل إطارًا حاكمًا لفهم الدلالة داخل النص، فهو ليس مجرد عنصر مساعد، بل يُعدّ أكبر وحدة دلالية عاملة في بنية الخطاب، من حيث إنه يجمع بين أجزاء النص ويمنحها تماسكها ومعناها الكلي، مع كونه في الوقت نفسه جزءًا لا يتجزأ من هذا البناء. [8]

ومن جهة أخرى، فإن الحديث عن السياق يقود إلى مسألة تطور اللغة، وهي قضية شغلت عددًا من الباحثين قديماً وحديثًا؛ غير

[1] سيبويه، الكتاب، 286/1.
[2] صالح، أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية، 18/1.
[3] محمد بن يوسف ناظر الجيش، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، تحقيق: علي محمد فاخر وآخرون (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2007)، 150/2.
[4] الخليل بن أحمد الفراهيدي، الجمل في النحو، تحقيق: فخر الدين قباوة (دمشق: دار الفكر، 1995)، 131.
[5] سورة الزمر 73/39.
[6] سورة البقرة 165/2.
[7] صالح، أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية، 18/1.
[8] صالح، أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية، 19/1.

أن النظر الدقيق يبيّن أن التغير لا يلحق اللسان بوصفه جهازًا ناطقًا، بل يلحق اللغة من حيث استعمالها وتداولها بين الناس. فالإنسان من حيث طبيعته البيولوجية ثابت، وكذلك جهازه النطقي، أما اللغة فهي كيان اجتماعي يتأثر بعوامل الفكر والثقافة والتعليم والتفاعل الحضاري، فتتغير مفرداتها وأساليبها ودلالاتها تبعًا لهذه المؤثرات.

ومن هنا فإن ما يُلاحظ من تغير في الألسنة عبر العصور إنما هو انعكاس لتحولات اجتماعية وثقافية، لا تطور ذاتي مستقل للسان نفسه. فاللغة تزداد ثباتًا في البيئات المنعزلة التي يقل فيها الاحتكاك بغيرها، بينما تكون أكثر عرضة للتغير في البيئات المنفتحة التي يكثر فيها التفاعل والتأثير المتبادل بين الجماعات. ولذلك فإن من يعايش قومًا زمنًا يكتسب شيئًا من لغتهم أو أسلوبهم، فتتداخل الألسن وتتأثر بعضها ببعض.

وبهذا يتضح أن السياق – بما يشمله من عوامل اجتماعية وثقافية – هو الذي يوجّه هذا التغير اللغوي ويحدده، وأن دراسة اللغة لا تنفصل عن دراسة محيطها الإنساني، حيث تتشكل الدلالة في ضوء التفاعل بين النص والواقع.

وتشهد اللغة -بحكم كونها كيانًا حيًّا مرتبطًا بالاستعمال -انتقال الألفاظ من معانيها الأصلية إلى معانٍ جديدة، فتخرج الكلمة أحيانًا عمّا وُضعت له ابتداءً إلى دلالات أخرى تقتضيها حاجات الاستعمال وتغيّر السياقات. وقد يقع هذا النقل على غير قصد، بسبب الجهل أو النسيان أو التداخل بين الألسن، كما قد يكون مقصودًا بدافع البلاغة أو التوسع أو الاصطلاح. ومن مظاهر هذا التحول انتقال اللفظ من العموم إلى الخصوص أو العكس، أو تغيّر مجاله الاستعمالي تبعًا لظروف جديدة، أو اندثار بعض الألفاظ لقلة تداولها، أو تبدّل علاقاتها التركيبية من حيث الإضافة والاقتران.

كما قد يُطلق اللفظ على ما يشابهه أو يجاوره أو يرتبط به بعلاقة ما، كإطلاق اسم المكان على ما يقع فيه، أو تسمية الكل باسم الجزء أو الجزء باسم الكل، وهي ظواهر معروفة في الاستعمال العربي، وإن بدت في ظاهرها تقاربًا، فإنها تمثل في حقيقتها انتقالًا دلاليًا جديدًا. وقد يبلغ التغيّر حدّ الاستبدال، فيحلّ لفظ مكان آخر نتيجة شيوعه وسهولة استعماله، أو يتطور اللفظ نفسه حتى يبتعد عن معناه الأول ابتعادًا كبيرًا.

ومع ذلك، فإن هذا التغير – على اتساع صوره – لا يجري اعتباطًا، بل تحكمه عوامل متعددة تتصل بالسياق الاجتماعي والثقافي والتواصلي، مما يجعله خاضعًا لسنن الاستعمال لا للفوضى المطلقة. وفي هذا الإطار، تظل اللغة العربية مثالًا بارزًا على التوازن بين الثبات والتطور، إذ حُفظ أصلها بنصوصها المؤسسة، وفي مقدمتها القرآن الكريم والسنة النبوية، مما أكسبها قدرًا من الاستقرار، مع بقائها قابلة للتجدد والتوسع في حدود نظامها اللغوي.[1]

ومما لا شك فيه أن لسان العرب زمن بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن الكريم كان يمثل المرحلة الحية المستعملة من اللغة العربية، وهو – بطبيعة الحال – يختلف عما كان عليه قبل قرون طويلة، كما اختلفت تلك المراحل السابقة بعضها عن بعض تبعًا لتغير الأحوال وتبدّل البيئات. فالتغير اللغوي سنة جارية في الألسن، غير أن الله تعالى اختار لرسالة الإسلام اللسان العربي في صورته التي كان عليها العرب في زمن النبوة، لا ما كان قبله من مراحل أقدم، فجاء القرآن بلسانهم الذي يعقلونه ويدركون أساليبه.

وقد كان النبي ﷺ أفصح العرب وأبلغهم بيانًا، فجمع بين سلامة الفطرة اللغوية ورفعة البيان، وأُيّد بالوحي الذي زاده كمالًا في التعبير ودقة في الدلالة، حتى صار كلامه في الذروة من الفصاحة والبلاغة، قبل البعثة وبعدها. ولم يُنقل عنه ما يقدح في لغته أو بيانه، بل ازداد بعد الوحي قوة ووضوحًا لما أُوتيه من جوامع الكلم، فكان يعبر بالألفاظ القليلة عن المعاني الكثيرة.

ويزداد هذا المعنى تأكيدًا في قوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى﴾،[2] حيث يبيّن أن منطقه ﷺ في مقام البيان والتشريع مؤيَّد بالوحي، مما يجعل خطابه في أعلى درجات الدقة والصدق. وبذلك اقترن كمال اللغة بكمال الوحي، فصار القرآن والسنة مرجعين أصيلين لحفظ العربية وتقويمها، ومصدرين أعلى يُحتكم إليهما في بيان الفصاحة وصحة الاستعمال.

وقد عُرفت العربية بثرائها البياني وكثرة ما فيها من الأساليب البلاغية، كالتشبيه والمجاز، حتى غدت الألفاظ فيها قادرة على

[1] ملتقى أهل الحديث، أرشيف ملتقى أهل الحديث، 400/17.
[2] سورة النجم الآية: 4/3/53.

حمل أكثر من دلالة بحسب السياق. ومن ذلك استعمال لفظ «أسد» للدلالة على الحيوان المعروف، ثم إطلاقه على الرجل الشجاع، وهو استعمال شائع عند العرب لا يُعدّ كذبًا، بل هو من قبيل التوسّع البلاغي الذي يعبّر عن المعنى بطريقة أبلغ وأقوى. ولا سبيل إلى الجزم أيُّ المعنيين كان أسبق في الاستعمال، كما أن كثيرًا من مراحل اللغة الأولى لم تُحفظ لنا على وجه التفصيل.

ومع تطور الاستعمال، استقرّ اللفظ الواحد ليُطلق على أكثر من معنى، فأصبح «الأسد» يُستعمل للحيوان وللإنسان الشجاع على السواء، دون أن يوقع ذلك في لبس، لأن السياق هو الذي يحدد المراد. فإذا أُريد تخصيص اللفظ بأحد المعنيين، فلا بد من قرينة أو سياق يرفع الاحتمال ويوجه الفهم، وإلا بقي اللفظ مشتركًا يحتمل أكثر من دلالة.

وقد اختلف العلماء في تصنيف هذا الاستعمال: أهو من باب الحقيقة والمجاز، أم من باب الاشتراك الدلالي، إلا أنهم اتفقوا على أن تعيين المعنى مرهون بالسياق وحال المتكلم ومقصده. فالمتكلم هو الذي يوجه دلالة لفظه من خلال الأسلوب الذي يختاره والقرائن التي يصوغ بها كلامه، وبذلك يتضح أن اللفظ لا يحمل معنى ثابتًا في ذاته، بل يكتسب دلالته من السياق الذي يرد فيه، وهو ما يؤكد مرة أخرى أن السياق هو العنصر الحاسم في فهم اللغة وتوجيه معانيها. [1]

واختلاف الألسنة بين الأقوام، بل وداخل القوم الواحد عبر العصور، ظاهرة طبيعية تحكمها سنن الاجتماع والتاريخ؛ إذ تتأثر اللغة بما يطرأ على أهلها من تحولات فكرية وثقافية وحضارية، فلا تثبت على حال واحدة، ولا تبقى ألفاظها ودلالاتها على نسق واحد، بل تتغير تبعًا لهذه المؤثرات. ومن هنا تتبدل الدلالات، وتتسع أو تضيق، بحسب ما يقتضيه الاستعمال في كل مرحلة.

وقد عرفت العربية منذ القديم تعددًا في الألسنة واللهجات، فلم تكن لسانًا واحدًا جامدًا، بل مجموعة من الاستعمالات المتنوعة التي تعود إلى قبائل مختلفة، وهو ما كان قائمًا قبل البعثة النبوية. غير أن كثيرًا من تلك الألسنة لم يُحفظ حفظًا دقيقًا، وما وصل منها لا يخلو من ظن أو تقدير، لغياب الناطقين بها وانقطاع الرواية المباشرة عنها. ثم جاء الإسلام فوحّد اللسان العربي في إطار أوسع، لكنه لم يمنع استمرار التغير والتأثر بالعوامل الخارجية.

ومع اتساع الفتوحات واختلاط العرب بغيرهم، دخلت عناصر جديدة في الاستعمال اللغوي، إذ تعلّم العربية غيرُ العرب، وأسهموا في نقل العلوم وترجمتها، ولا سيما في ميادين الفلسفة وغيرها، فوقع نوع من التداخل بين الألفاظ والأساليب، وأثّر ذلك في الدلالة والسياق. وهذا التفاعل الحضاري، وإن كان سببًا في بعض التغير، فإنه أسهم أيضًا في إثراء العربية وتوسيع مجالاتها التعبيرية.

وعلى هذا، فإن تغير اللغة لا يعني اضطرابها، بل يدل على حيويتها وتفاعلها مع محيطها، وأن السياق -بوصفه الإطار الذي تتشكل فيه الدلالة -يتأثر بدوره بهذه التحولات، فيتجدد مع تجدد الاستعمال، ويظل الأداة الأساس في فهم المعنى وتوجيهه عبر العصور. [2]

4. الجانب الوصفي وأثره في الدلالة:

يقوم الجانب الوصفي في دراسة اللغة على تحليل الكلمة ووظيفتها في سياقها الراهن، دون الارتكاز على تتبّع تاريخها وتطورها، وهو ما أشار إليه سوسير حين قرر أن المعنى يُفهم من خلال موقع الكلمة داخل النظام اللغوي وعلاقاتها بالسياق الذي ترد فيه، لا من خلال أصلها التاريخي. [3] ومن ثمّ فإن هذا المنهج يبرز أهمية السياق بوصفه الإطار الذي تتحدد فيه الدلالة في لحظة الاستعمال، حيث تُفهم الكلمة في ضوء ما يحيط بها من قرائن لغوية ومقامية. [4]

وإذا انتقلنا إلى التراث الإسلامي، نجد أن الإمام أحمد بن حابط المعتزلي قد أدرك أهمية السياق في توجيه الدلالة، فوسّع دائرته ليشمل النظر في عموم الخطاب وعلاقته بالموجودات. فقد استدل بقوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير

[1] ملتقى أهل الحديث، أرشيف ملتقى أهل الحديث، 400/17.
[2] ملتقى أهل الحديث، أرشيف ملتقى أهل الحديث، 400/17.
[3] ملتقى أهل الحديث، أرشيف ملتقى أهل الحديث، 400/18.
[4] ملتقى أهل الحديث، أرشيف ملتقى أهل الحديث، 400/18.

بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾،[1] وقوله: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾،[2] على عموم لفظ «أمة»، غير أنه فرّق -اعتمادًا على السياق العقلي والشرعي -بين عموم اللفظ وخصوص الخطاب، فبيّن أن التكليف لا يتوجه إلا إلى الإنسان العاقل، لما يمتاز به من عقل ونطق وقدرة على الفهم، بخلاف سائر المخلوقات التي لا تدخل في دائرة التكليف رغم اندراجها تحت مسمى «أمم».

ومن جهة أخرى، يبرز موقف ابن حزم الذي شدد على أن المعنى ليس متعددًا على إطلاقه، بل هو ما يفهمه السامع من الخطاب في سياقه، رافضًا التوسع في القول بتعدد المعاني الظاهرة، ومؤكدًا أن الدلالة تتحدد بما يقتضيه النص وسياقه المباشر. وبذلك يلتقي هذا التصور مع المنهج الوصفي في التركيز على المعنى الحاضر في الاستعمال، لا على احتمالات بعيدة أو تأويلات مفارقة للسياق. [3]

وعليه، فإن الجانب الوصفي يُظهر بجلاء أن الدلالة ليست ثابتة في اللفظ ذاته، بل تتشكل من خلال السياق الذي يحيط به، وأن فهم النصوص – ولا سيما الدينية منها – لا يتحقق إلا باستحضار هذا السياق بجميع أبعاده، اللغوية والعقلية والمقامية.

5. ألفاظ القران الكريم وأثرها في السياق:

تتجلى خصوصية ألفاظ القرآن الكريم في طريقة استعمالها وبنائها التركيبي، حيث ترتقي دلالتها بالسياق إلى مستوى يتجاوز حدود التعبير اللغوي المألوف، فتغدو الكلمة القرآنية جزءًا من نسيج محكم تتآزر فيه الألفاظ والمعاني على نحو معجز. وليس الإعجاز في مفردات منفردة، بل في انتظامها داخل السياق، بحيث تُؤدي كل لفظة وظيفتها بدقة، وتُسهم في بناء المعنى الكلي للنص بصورة لا يمكن محاكاتها.

وقد عُرف عن العرب فصاحتهم وتمكنهم من أدوات البيان، ومع ذلك عجزوا – على ما لديهم من قدرة – عن الإتيان بمثل هذا النظم القرآني، لا من جهة الألفاظ وحدها ولا من جهة التراكيب، لأن الإعجاز يكمن في العلاقة السياقية التي تربط بين العناصر اللغوية داخل النص، فتُنتج دلالة متكاملة تتجاوز مجموع أجزائها. فحتى لو استُعملت ألفاظ القرآن نفسها خارج سياقها، فإنها لا تُحدث الأثر ذاته، لأن سرّ البلاغة يكمن في موضعها من التركيب، وفي انسجامها مع ما قبلها وما بعدها.

ومن هنا، فإن السياق القرآني يرفع الألفاظ إلى مستويات أسمى من الدلالة، حيث تمتزج المعاني العقلية والنفسية والبيانية في بنية واحدة، فتؤثر في المتلقي تأثيرًا يتجاوز الإدراك اللغوي المباشر إلى استجابة وجدانية عميقة. وهذا ما جعل القرآن يجمع بين الإقناع العقلي والتأثير النفسي، فيتلقاه السامع بإحساس فطري يدرك تميّزه، حتى وإن عجز عن تفسير ذلك بلغة التحليل. [4]

وبذلك يظهر أن إعجاز القرآن لا ينفصل عن سياقه، بل يقوم عليه، وأن دراسة ألفاظه لا تكتمل إلا بالنظر في موقعها من التركيب، وفي العلاقات الدلالية التي تنشأ بينها، وهو ما يجعل السياق القرآني نموذجًا أعلى لفهم التفاعل بين اللفظ والمعنى في أرقى صوره.

ويتجلّى سرّ هذا التناسق الدلالي والإعجاز البياني بوضوح عند الرجوع إلى السياق القرآني في مواضعه المختلفة؛ إذ لا تُفهم الآية على وجهها الكامل إلا ضمن السياق الذي وردت فيه. ومن ذلك قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ... وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً... لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾،[5] حيث يجمع السياق بين تقرير حقيقة الرزق وأنه بيد الله تعالى، وبين إقرار المشركين أنفسهم بذلك، مما يُقيم الحجة عليهم ويُبرز التناقض في سلوكهم.

فالسياق هنا لا يقتصر على بيان معنى «بسط الرزق» و«تقديره»، بل يتجاوز ذلك إلى توجيه الفكر نحو مصدر الرزق الحقيقي، والدعوة إلى توحيد الله الذي يملك تدبيره. كما يكشف عن طبيعة النفس البشرية التي تنشغل بالرزق طلبًا وجمعًا، حتى يبلغ الأمر حدّ الانشغال المفرط الذي قد يصرف عن المقصد الأسمى، وهو عبادة الله وذكره. ومن هنا جاء التنبيه القرآني في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾،[6] ليوازن بين السعي المشروع في طلب الرزق

[1] سورة لأنعام الآية: 24/6.
[2] سورة فاطر الآية: 24/35.
[3] بوقرة، النظرية اللسانية عند ابن حزم الأندلسي، قراءة نقدية في مرجعيات الخطاب اللساني وأبعاده المعرفية، ٥٧/١.
[4] مصطفى صادق الرافعي، تاريخ الأدب العربي (بيروت: دار الكتب العلمية، 1975)، 54.
[5] سورة العنكبوت 29/64-65.
[6] سورة المنافقون 63/9.

وبين عدم الغفلة عن الغاية الكبرى.

وبذلك يظهر أن السياق القرآني يربط بين المعنى العقدي والسلوك الإنساني، فيحوّل المفهوم من مجرد خبر عن الرزق إلى توجيه عملي يضبط علاقة الإنسان به، ويعيد ترتيب أولوياته. وهذا الترابط هو الذي يمنح الألفاظ القرآنية عمقها وتأثيرها، حيث تتكامل الدلالة بين اللفظ والسياق لتنتج معنى شاملًا يتجاوز حدود العبارة إلى بناء رؤية متكاملة للحياة. [1]

ويتجلّى إعجاز السياق القرآني كذلك في ظاهرة التقديم والتأخير، وما يترتب عليها من فروق دقيقة في الدلالة لا يمكن إغفالها؛ إذ إن ترتيب الألفاظ في القرآن ليس اعتباطيًا، بل محكوم بحكمة بلاغية دقيقة ترتبط بالسياق العام للآيات. ففي مطلع سورة سبأ، يتقدّم الثناء على الله تعالى وبيان إحاطته وعلمه الشامل قبل ذكر مواقف البشر، كما في قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض... وهو الحكيم الخبير﴾،[2] ثم يأتي بعد ذلك الحديث عن إنكار الكافرين للساعة، مما يبيّن أن السياق بدأ بتقرير الحقيقة الإلهية قبل عرض موقف الإنسان منها، فجاء تأخير ذكر أصناف البشر تابعًا لهذا المقصد.

ويتضح أثر التقديم والتأخير بصورة أدق عند المقارنة بين موضعين متشابهين في الظاهر مختلفين في الدلالة، كما في قوله تعالى في سورة يس: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى﴾،[3] وقوله في سورة القصص: ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى﴾. [4] ففي الموضع الأول تقدّم الجار والمجرور «من أقصى المدينة» للاهتمام بمصدر المجيء وبُعده، وكأن السياق يبرز مشقة المسافة وعِظم الحدث، إذ جاء الرجل من مكان بعيد مسرعًا لنصرة الحق، فكان التركيز على جهة المجيء نفسها. أما في سورة القصص، فقد تأخر الجار والمجرور، فتقدّم «رجل» ليتجه التركيز إلى ذات الفاعل، أي إلى الشخص الذي جاء بالتحذير، في سياق يتعلّق بإنقاذ موسى عليه السلام، فكان الاهتمام بالشخص ودوره أكثر من جهة مجيئه.

وهذا الفرق الدقيق ينعكس على المعنى؛ إذ إن قولنا: «جاء من القرية رجل» يفيد أن المجيء تحقق من جهة معينة على وجه التأكيد، بينما قولنا: «جاء رجل من القرية» قد يحتمل أن يكون التركيز على وصف الرجل لا على جهة مجيئه، فيبقى الاحتمال قائمًا من جهة الدلالة. [5] ومن هنا يتبين أن السياق القرآني يوجّه ترتيب الألفاظ بما يخدم المعنى المقصود، وأن التقديم والتأخير أداة بلاغية دقيقة تُسهم في بناء الدلالة وتحديدها، بحيث لا يكون في النص القرآني لفظ أو ترتيب إلا وله وظيفة مقصودة تؤدي إلى معنى أعمق وأدق. [6]

الخاتمة

تُظهر هذه الدراسة أن السياق اللغوي يُعدّ الأداة المركزية في تحديد دلالات الألفاظ، ولا سيما في النص القرآني، حيث لا يمكن فصل الكلمة عن محيطها التركيبي والمقامي والتاريخي. وقد تبيّن أن تعدد المعاني في الألفاظ القرآنية ليس اضطرابًا دلاليًا، بل هو نتيجة طبيعية لتفاعل السياق مع البنية اللغوية، واختلاف القراءات، وتنوّع اجتهادات المفسرين. كما أثبتت الدراسة أن التراث اللغوي العربي كان سبّاقًا في إدراك قيمة السياق، من خلال اعتماد النحاة والبلاغيين على القرائن والمقام، وإن لم يُصغ ذلك في إطار مصطلحي حديث. وتأكد كذلك أن الظواهر البلاغية، كالتقديم والتأخير، واختيار الألفاظ، وبناء التراكيب، كلها خاضعة لنظام سياقي دقيق يُسهم في توجيه المعنى وإحكامه، وأن السياق هو الذي ينقل اللفظ من دلالته المعجمية إلى أبعاده العقدية والبيانية الأعمق.

وانطلاقًا من هذه النتائج، توصي الدراسة بضرورة اعتماد المنهج السياقي في تفسير القرآن الكريم بوصفه منهجًا أساسًا لا غنى عنه، يجمع بين التحليل اللغوي الدقيق واستحضار القرائن المقامية والتاريخية. كما تدعو إلى إعادة قراءة التراث اللغوي العربي في ضوء النظريات اللسانية الحديثة، بما يكشف عن عمقه ويعيد توظيفه في الدراسات المعاصرة. وتوصي أيضًا بتوسيع الدراسات التطبيقية التي تربط بين السياق وتعدد الدلالات والقراءات القرآنية، مع العناية بالتكامل بين التفسير اللغوي والتفسير المقاصدي، بما يحقق فهمًا أشمل للنص القرآني.

---

[1] محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995)، 2/281.
[2] محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، إعراب القرآن وبيانه (دمشق، بيروت: دار الإرشاد، دار اليمامة، دار ابن كثير، 1415)، 64/8.
[3] سورة يس 36 /20.
[4] سورة سبأ 3/34
[5] سورة القصص 20/28.
[6] علي بن نايف الشحود، الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم (الرياض: د.ن.، 2008)، 339/1.

وخلاصة القول، فإن السياق ليس عنصرًا مكمّلًا للمعنى، بل هو جوهره الذي تتشكل من خلاله الدلالة وتستقيم، وهو المفتاح الحقيقي لفهم النص القرآني واستكشاف أبعاده البيانية والإعجازية. وكلما تعمّق الباحث في استحضار السياق وتفكيك عناصره، ازداد النص وضوحًا واتسعت آفاق دلالته، مما يجعل من المنهج السياقي سبيلًا راسخًا لفهم القرآن الكريم فهمًا دقيقًا ومتوازنًا، يجمع بين أصالة التراث وعمق النظر العلمي المعاصر.

المصادر والمراجع

- الأزهري، م. أ. (2001). تهذيب اللغة (تحقيق م. ع. مرعب، 8 مجلدات). دار إحياء التراث العربي.
- الأنباري، م. ق. (1992). الزاهر في معاني كلمات الناس (تحقيق ح. ص. الضامن، جزآن). مؤسسة الرسالة.
- البرزيوي، و. ز. (2016). السياق ودوره في تفسير القرآن الكريم. مجلة الجامعة العراقية، (35).
- بوقرة، ن. (د.ت.). النظرية اللسانية عند ابن حزم الأندلسي: قراءة نقدية في مرجعيات الخطاب اللساني. الجزائر.
- بوموز، ك.، وزويدة، ف. ز. (2019). دلالة السياق اللغوي في فهم القصص القرآني: سورة يوسف أنموذجًا [مذكرة ماستر غير منشورة]. جامعة ابن خلدون.
- الجاحظ، ع. ب. (1964). رسائل الجاحظ (تحقيق ع. م. هارون، 4 أجزاء). مكتبة الخانجي.
- ابن جني، ع. (د.ت.). الخصائص (تحقيق م. ع. النجار، ط4، 3 أجزاء). الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ابن حنبل، أ. م. (2001). مسند الإمام أحمد بن حنبل (تحقيق ش. الأرنؤوط وآخرين، 50 جزءًا). مؤسسة الرسالة.
- الحمزاوي، ع. إ. (2015). الأمثال العربية والأمثال العامية: مقارنة دلالية. دار العلم والإيمان للنشر.
- ابن خلدون، ع. م. (1981). ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر (تاريخ ابن خلدون، 8 أجزاء). دار الفكر.
- ابن خلدون، ع. م. (2005). مقدمة ابن خلدون (تحقيق م. ش. مصطفى). مؤسسة الرسالة.
- درويش، م. أ. (1995). إعراب القرآن وبيانه (ط4، 10 مجلدات). دار ابن كثير.
- الرازي، ف. د. (د.ت.). مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (32 مجلدًا). دار إحياء التراث العربي.
- الرافعي، م. ص. (د.ت.). تاريخ آداب العرب. دار المعارف.
- الرجراجي، ع. س. (2007). مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل في شرح المدونة (اعتناء أ. الدمياطي وأ. علي، 10 أجزاء). دار ابن حزم.
- ابن الرفعة، أ. م. (2009). كفاية النبيه في شرح التنبيه (تحقيق م. م. باسلوم، 21 جزءًا). دار الكتب العلمية.
- الزجاج، إ. س. (1988). معاني القرآن وإعرابه (تحقيق ع. ع. شلبي، 5 أجزاء). عالم الكتب.
- ابن سيده، ع. إ. (1996). المخصص (تحقيق خ. إبراهيم، 5 مجلدات). دار إحياء التراث العربي.
- سيبويه، ع. ع. (1975). الكتاب (تحقيق ع. م. هارون). الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الشحود، ع. ن. (2008). الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم. الرياض.
- الشنقيطي، م. أ. (1995). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. دار الفكر.
- صالح، م. س. (د.ت.). أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ودورها في التوصل إلى المعنى.
- الطبري، م. ج. (د.ت.). جامع البيان عن تأويل آي القرآن (24 جزءًا). دار التربية والتراث.

- أبو عبيد، ق. س. (1989-1996). الغريب المصنف (تحقيق م. م. العبيدي، 3 أجزاء). بيت الحكمة.
- العوتبي، س. م. (1999). الإبانة في اللغة العربية (تحقيق ع. خليفة وآخرين، 4 أجزاء). وزارة التراث القومي والثقافة.
- عمر، أ. م. (2003). البحث اللغوي عند العرب (ط 8). عالم الكتب.
- عويني، ع. (2025). الدلالة اللغوية والسياق وأثرهما في فهم ألفاظ ومصطلحات القرآن. مجلة لغة – كلام، 11(2).
- ابن الفراء، م. ح. (2013). إبطال التأويلات لأخبار الصفات (تحقيق م. ح. الحمود). غراس للنشر.
- ابن فورك، م. ح. (1985). مشكل الحديث وبيانه (تحقيق م. م. علي، ط2). عالم الكتب.
- القيسي، م. أ. (1985). مشكل إعراب القرآن (تحقيق ح. ص. الضامن، ط2، جزآن). مؤسسة الرسالة.
- مجمع اللغة العربية. (د.ت.). دراسات في اللهجات العربية. إصدارات مجمع اللغة العربية.
- معلاوي، أ. أ. (2023). علاقة التأويل بالسياق ودوره في بناء المعنى. مجلة كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي، 32(59).
- ملتقى أهل الحديث. (د.ت.). أرشيف ملتقى أهل الحديث [مقالات وبحوث إلكترونية].
- ناظر الجيش، م. ي. (2007). تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد (تحقيق ع. م. فاخر وآخرين، 11 جزءًا). دار السلام.
- الواحدي، ع. أ. (2009). التفسير البسيط (25 جزءًا). جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- ابن يعيش، م. د. (2001). شرح المفصل للزمخشري (6 أجزاء). دار الكتب العلمية.